

سمره، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»<sup>(١)</sup> ثم حذرهم عليه السلام من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه، فكانت هذه القصة الأنصارية:

## قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئتنا من الإبل والغنم، حتى ألجوؤه [إلى سمره]، فاخطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بغير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشاراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بغير لي دبر.

قال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده»<sup>(٢)</sup>. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفساد جهده وجهاده من أجل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة من شعر تافه رخيص.

هذا هو مفهوم المال العام في الإسلام.. إنه للأمة، فالصحابه قالوا: اقسم علينا فيئتنا. فلم ينكر عليهم عليه السلام، بل أكد ذلك بقوله: (أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) كما أنه حذرهم من التعامل مع هذا المال وأخذه دون إذن الإمام.

هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة، لا من تكئات التشريعات العسكرية البشرية، التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاعتصاب

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٢٨.

(٢) سنن حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٢٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.

و.. وقائمة شنيعة من جرائم الحرب، بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم. أما محمد عليه السلام فبكل كلمة واحدة ضبط كل شيء، لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج، بل يشيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم، وها هو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالاً ليس لهم تاريخ ولا رصيد حتى الآن في الإسلام، بل إن بعضهم سخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الدين، ومع ذلك، وفي أصفى لحظات الانتقام يطل محمد ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم، وعرفهم بربهم تعريفاً جديداً لا تحجبه الأحقاد.

استدعى ﷺ أبا سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء.. في لحظات كان الجميع يتربص أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عباد أو أسيد بن حضير، أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين.

استدعى ﷺ أولئك الرجال ف«أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصين مائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يعطي رسول الله ﷺ غنائمنا ناساً تقطر سيوفهم من دماننا، أو تقطر سيوفنا من دمائهم؟! فبلغه ذلك»<sup>(١)</sup>

بلغه هذا الكلام الصادر من بعض فتيان الأنصار المتحمسين، والذين يرون في الغنائم أوسمة للمحاربين، ومكافأة لهم، وهم يرون أن هؤلاء لا يستحقون مثل هذا التكريم نظراً لتاريخهم البعيد، وحتى القريب.. حيث فروا من أرض المعركة.. هذه الكلمات غير المتزنة، والتي ينقصها التروي وبعد النظر.. وجدت خصوبة لدى أحد المتهورين من فتيان الأنصار، فأطلق كلمات غيرت وجه النبي ﷺ، وعكرت صفو انتصاره بعد أن نقلها له أحد الصحابة.. الذي يروي ما حدث من:

## الاحتجاج على توزيع الغنائم

فيقول: «لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله»<sup>(٢)</sup> وذلك حين «أثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٢-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهذا سند ثلاثي صحيح.

يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضاً.

من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ.

قال: فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف<sup>(١)</sup>، فغضب من ذلك غضباً شديداً واحمر وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. ثم قال: يرحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً<sup>(٢)</sup>.

لم يكن ذلك الشاب الأنصاري الطائش وحده الذي تناول على النبي ﷺ، واتهمه بعدم العدل، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهوراً آخر يتهم النبي ﷺ ويعلن عن:

### مولد أول الطوائف المتطرفة

طائفة غرتهم كثرة عبادتهم، فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم، فجرهم ذلك إلى قذف التهم يميناً وشمالاً، وتناولوا فتسوروا القلوب، واقتحموا النوايا، ورسموها لا كما هي، بل كما يريدون، وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة.

النوايا حصون منيعة لم يجرؤ النبي ﷺ على اقتحامها يوماً، إلا بوحى يحمله جبريل.. فيقول لأمته: (إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم)<sup>(٣)</sup> أما هؤلاء الخوارج فتهوروا باقتحام ما عجز عنه النبي ﷺ، بل تجرأ أحدهم اليوم على تصحيح الوحي ذاته ونقد النبوة. يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً،

(١) الصرف شجر أحمر.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء. قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> هكذا يصفهم عليه السلام أنهم لم يأخذوا من الإسلام.. تماما كمثل السهم السريع جداً الذي يصيب الفريسة، فيخرج منها بالسرعة نفسها، دون أن يعلق فيه شيء من جسدها سوى لون الدم، فلا شيء على الحديدية التي تسمى النصل، ولا على رصافه، أي العصب الذي يلف على مدخل النصل، ولا على الريشة في آخره، والتي تسمى القذة. وقد ذكر النبي ﷺ مزيداً من صفاتهم، حتى لا ينخدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم.

يقول عليه الصلاة والسلام: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»<sup>(٢)</sup> قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق»<sup>(٣)</sup> أي حلق شعر الرأس.

حادثة هذا الخارجي الذي يعتبر شاذاً اليوم أمام الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، هذه الحادثة سلطت الضوء على مساحة الحرية الشاسعة في القول والتعبير عن الرأي والاحتجاج بالكلمة، كما كشف رحابة صدر القائد المسلم، والدولة المسلمة في الاستماع لمواطنيها مهما أغلظوا في القول أو احتدوا في التعبير. فهذا الرجل لم يضرب، ولم يسجن، بل رفض عليه السلام أن يمسه عمر بأذى، بل قال لعمر: (دعه). لماذا؟

(١) صحيح البخاري ٢-١٢٢١.

(٢) صحيح البخاري ٢-١٢٢١.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.

لأن في الحق والعدل ما يخرس ألسنة المتطرفين، ويصرف وجوه الناس عنهم، لكن الخوارج إذا انتقلوا من اللسان إلى السيف، فلا بد من مواجهتهم بالأسلوب نفسه، وبالعدل أيضاً، وهذا ما شرعه النبي ﷺ لأُمَّته في التعامل مع الخوارج.

أما غير الشاذ على ساحة الجعرانة، فهو إحساس بعض شباب الأنصار ببعض الغضاضة.. من ذهاب الغنائم إلى رجال لم يعرفوا الإسلام إلا منذ أيام، عندما قام ﷺ «فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً. فقالت الأنصار: إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا»<sup>(١)</sup>... أحس ﷺ بعتاب الأنصار وحبهم يتمددان في صدره، فأحب أن يقدم لهم كنوزاً لا يستحقها سواهم، ومجداً لا يطاوله غيرهم.. في الوقت الذي يفرح غيرهم بخشاش الأرض. وذلك «لما قسم رسول الله ﷺ السبي بالجعرانة، أعطى عطايا قريباً وغيرها من العرب، [أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعبيدة ابن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقـرع  
فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع  
وما كنت دون امرئ منهما ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فتم له رسول الله ﷺ [مائة]<sup>(٢)</sup> ولم يكن في الأنصار منها شيء، فكثرت القالة وفشت حتى قال قائلهم: أما رسول الله فقد لقي قومه.

فأرسل إلى سعد بن عبادة فقال: ما مقاله بلغني عن قومك أكثرها فيها؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك.

قال: فأين أنت من ذلك؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم.

فجمعهم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، وقام على بابها وجعل لا يترك إلا من كان من قومه، وقد ترك رجالاً من المهاجرين وزاد أناساً. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٥.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ٢-٧٣٧.

وجهه الغضب، [فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم]<sup>(١)</sup>

[فجمعهم في قبة من آدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتالفهم]<sup>(٢)</sup> يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟

فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

فقال: ألا تجيبون؟

قالوا: الله ورسوله آمن وأفضل.

فلما سري عنه قال: ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريداً فأويناك، ومكذباً فصدقناك، وعائلاً فأسيناك، ومخذولاً فنصرناك؟ فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله آمن وأفضل.

قال: أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قوماً أتالفهم على الإسلام، وكلتكم إلى إسلامكم، لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديتكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار [الأنصار كرشى وعيبتي]<sup>(٣)</sup>، ثم رفع يديه حتى إنني لأرى ما تحت منكبيه فقال: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٢٣.

(٣) سنده صحيح وهو حديث الإمام أحمد السابق.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟  
فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: رضينا بالله رباً،  
وبرسوله حظاً ونصيبةً<sup>(١)</sup> بعد أن أشار ﷺ إلى مواقعهم ومواقع غيرهم، وأراهم  
هول الكنوز والأمجاد الخالدة التي سيسافرون بها عبر التاريخ، فهم وحدهم الذين  
استدعاهم النبي عليه السلام في الشدة، بعد أن هرب الناس وتركوه، وهم وحدهم  
الذين لم يقبضوا شيئاً من تلك المعركة التي هي في الحقيقة معركتهم وحدهم، وهم  
وحدهم غنموا النبي عليه السلام وفازوا به، بينما فاز غيرهم بالبقر والماعز.  
أفأق الأنصار من كبوة عابرة، وتجلي حب الله لهم.. قبل أن يحركوا رواحلهم  
من هذا المكان المزدهم بالعواطف الجياشة، فقد حدث شيء سار ومفرح للنبي ﷺ  
وأصحابه.. خاصة الأنصار وذلك عندما شاهدوا جميعاً:

### هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة.. تبحث عن رسول الله ﷺ، لا  
لتقاتله، بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها، ويحررها من الرق لتعود  
بها. لكن الوقت قد فات، فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام.  
في هذا الوقت كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سبق الجميع إلى مكة،  
وذلك ل:

### وفاء نذر عمر في الجاهلية

يقول ابنه عبد الله بن عمر «إن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ وهو  
بالجعرانة، بعد أن رجع من الطائف فقال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن  
أعتكف يوماً في المسجد الحرام فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوماً<sup>(٢)</sup> فهو وإن كان

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن  
محمود بن لبيد عن أبي سعيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢٧٧.

نذر طاعة، إلا أنه عبادة تحتاج إلى سؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها، لأن العبادات في الإسلام محرمة، إلا إذا كان لها دليل من كلام الله، أو موافقة نبيه ﷺ، وهذا النذر كصلاة بلال عندما «قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة: يا بلال، حدثني بأرجي عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة، من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»<sup>(١)</sup>

فلو لم يوافق النبي ﷺ فعل بلال، لتحول ذلك العمل إلى ابتداء مرفوض في الإسلام، فذات يوم «بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»<sup>(٢)</sup>

فقد وافقه النبي ﷺ على نذر الطاعة فقط، وهو الصوم، واحتج على نذر المعصية وأبطله، ففي الإسلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيادة والنقصان والغلو، حتى يبقى هذا الدين نقياً كما أنزل، وحتى لا يتكئ المسلم على فعل عمر أو بلال، أو حتى أبي إسرائيل رضي الله عنهم.. بدعوى أن الصحابة لا يمكن أن يخالفوا رسول الله ﷺ، فالصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، فهم يخطئون وينسون، بينما النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، وقد عصمه الله عن الخطأ في التبليغ والتشريع، والمستند الوحيد المقبول هو فعله وقوله وموافقته ﷺ، لأنه هو وحده الذي يوحى إليه، وهو وحده النبي، بل خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام وآخرهم، والبقية تبع لمحمد ﷺ، وبذلك نضمن بقاء الإسلام جديداً طرياً.. نشره من النبع لا من الفروع التي قد تلتأت عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والنزوات.

إذاً فقد أقر النبي ﷺ عمر على نذر الطاعة في الجاهلية، وهو الآن في مكة ليفي بنذره، في الوقت نفسه وصل مقاتلوا قبيلة هوازن إلى أرض الجعرانة معلنين إسلامهم، وانضوائهم تحت لواء الإسلام.. راجين من النبي ﷺ أن يحرر أطفالهم ونساءهم وأموالهم، ف:

(١) صحيح مسلم ٤-١٩١٠.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٥.

## هل ستحصل هوازن على ما طلبته

أحد شهود العيان «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أتى وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجرعانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامن علينا من الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر - وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ - يقال له (زهير بن سرد) وكان يكنى بأبي سرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امن علينا رسول الله في كرم  
فإنك المرء نرجوه وندخر  
امن على بيضة قد عاقها قدر  
ممزق شملها في دهرها غير

في أبيات قالها .

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبنائنا، فهم أحب إلينا.

فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله .

قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عبيدة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا .

قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله . قال العباس لبني سليم: وهنتموني .

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم<sup>(١)</sup>

وعادت هوازن مبهتجة مجموعة الشمل بالإسلام والنساء والأطفال، ونهض الجيش المسلم متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة مع النبي ﷺ، وتمايلت مطايا الأنصار تحمل النبي ﷺ فهو غنيمتها من هذه المعركة العظيمة، وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة، ولما بدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

### مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بتريد ما يقوله.. مقلدين صوته الجميل، وساخرين منه، وكان أشدهم تقليداً هو أكثرهم بغضاً للنبي ﷺ ولدينه .

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ، فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملاً في صدره حلم الداعية، ووعي المري، وبأسلوب عذب وراق، ودون تجهم وجه أو تشنج أو ضجيج.. تهادى نحو أولئك الفتيان برفق، وقدم للتربويين في كل الدنيا درساً في استغلال الطاقات، وعدم إهدار القدرات، فحدثت هذه القصة التي يرويها أبو محذورة . وأبو محذورة هذا.. هو ذلك الشاب الذي كان شديد البغض والتقليد للأذان وأهله، حيث يقول «نعم خرجت في نفر، فكنا ببعض طريق حنين، فقف رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق.. فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون، فصرخنا نحكيه

(١) سند صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في التاريخ ١٧٣-٢ وغيره: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند مشهور جداً وهو حسن لكن كلمة الأنصار وَهُمْ من عمرو أو من ابن إسحاق لأن الأنصار لم يحصلوا على شيء من غنائم هوازن إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه من السلب فقد حصل بعض الأنصار على سلب من قتلوه أثناء المعركة .

ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع.

فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني فقال: قم فأذن بالصلاة. فقامت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال قل: (١)

«الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة مرتين

حي على الفلاح مرتين

الله أكبر الله أكبر... لا إله إلا الله» (٢)

ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك.

فقلت: يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة.

فقال: قد أمرتك به. وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت

(١) انظر تخريجه في الحديث بعد التالي.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> الذي لم يعنفه، ولم يأمر بقطع رأسه، بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى، فوجد طيشاً يحتاج إلى من يترفق به، ووجد مواهب ليس من العدل إهدارها على الطريق. أما الفتى فوجد من يعتني به ويقدر ما لديه، فاحتضنه بقلبه وتحول إلى أحب الناس إليه، ولم يكتف بذلك، بل طلب من النبي ﷺ في الحال أن يوظف ما لديه من قدرات في الخير، له وللناس. فكان ما أراد. فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتسمية الإبداع ورعاية المواهب، ولكن نحو خير البشرية ورفاهها، لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ:

## أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة، فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار، فانطلق نحو شعاب الأنصار، لكن قبل أن ينطلق قام ﷺ بـ:

## إعادة أذراع صفوان بن أمية

فقد «استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية سلاحاً، فقال صفوان: أعارية، أم غضب؟ فقال: بل أعارية.

فأعاره ما بين الثلاثين إلى أربعين درعاً، فغزا رسول الله ﷺ حيناً، فلما هزم الله المشركين قال رسول الله ﷺ: اجمعوا أذراع صفوان، ففقدوا من دروعه أذراعاً، فقال

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٤٠٩-٣ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد العزيز ابن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً في حجر أبي محذورة عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة.. ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ٢٥٨ أما شيخه فتابعي ثقة: التقريب ٢٢٢ وعبد العزيز لم ينفرد فقد توبع تابعه من أدرك ابن جريج من أهله وللحديث شاهداً عند ابن خزيمة: ٢٠١ حدثني عثمان ابن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة. وقد توبع عثمان. وصححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٦١٣).

رسول الله ﷺ لصفوان: إن شئت غرناها لك. فقال: يا رسول الله، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ<sup>(١)</sup>.

لقد أخلجه وغمره كرم هذا النبي ﷺ الغامر وتسامحه وسعة حلمه، فأصبح لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد، فبمثل هذا المستوى من الأخلاق تتزعزع القلوب، وتتهاوى تلك الجدران الغليظة التي تحول بين صاحبها وبين استمراء الحقيقة والانفتاح عليها، والنبي ﷺ لم يؤثر على كثير من الناس بسبب كثرة صلاته وصيامه أو مظهره، فبالإضافة إلى حملة حقيقة كالنهار، فإنه يحمل معها أخلاقاً كالماء البارد للعطشى والمتعبين.. يعفو عن هذا ويعطي هذا، ويثني على ذلك ويمدح رابعاً ويتنازل لخامس و.. ويبتسم في وجه الجميع، ويصدق مع الجميع، وفي بوعوده، ويلتزم بمواثيقه ولا ينتقم لنفسه.. وقائمة لا تنتهي من الأخلاق البيضاء.. التي أعياى الكثير من المتدينين وغير المتدينين حملها. فتلك الصفات أثقل من الجبل.. إذا لم يتخل الإنسان عن أنانيته، وذاته الكثيفة المعتمة التي لا يرى معها سواها. أما أولئك الذين يضعون أنفسهم ضمن الجميع، ويحكمون عليها كما يحكمون على الجميع، ويحبون للجميع ما يحبونه لها، فهم تلك النوعية الممتازة من البشر التي تستمتع بممارسة الأخلاق وتبدع في إهدائها، وهذا ما يجيده النبي ﷺ، وبه تمكن من أخذ قلب صفوان بن أمية، رغم أن صفوان لا يزال حتى الآن في مكة. أما النبي ﷺ فحملة الأنصار نحو شعبهم عندما توجه الناس نحو شعابهم، ومعه المهاجرون الأبرار، ولم يمض من الوقت غير قليل حتى تمايلت المطايا نحو المدينة فإذا:

## صفوان بن أمية في المدينة

حيث تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها قلب النبي ﷺ، ففي مكة «قيل لصفوان: إنه من لم يهاجر هلك.

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الكبرى ٦-٨٩ أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق ثنا يوسف بن يعقوب القاضي ثنا مسدد ثنا أبو الأحوص ثنا عبد العزيز بن ربيع عن عطاء بن أبي رباح عن ناس من آل صفوان بن أمية. وأخبرنا أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا جرير عن عبد العزيز بن ربيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان أن رسول الله ﷺ. وله شاهد من طريق شريك بن عبد الله في مسند أحمد ٦-٤٦٥ عن عبد العزيز بن ربيع عن أمية.

فدعا براحلته فركبها، فأتى المدينة فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا أبا وهب؟ قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له؟

قال: ارجع إلى أباطح مكة. فرجع<sup>(١)</sup> لكنه كان متعباً «فدخل المسجد فتوسد رداءه فجاء رجل فسرقه، فأتي به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله سرق هذا ردائي. فأمر النبي ﷺ بقطعه.

فقلت: يا رسول الله لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل، قد جعلتها صدقة عليه.

فقال رسول الله ﷺ: فهلا قبل أن تأتيني به<sup>(٢)</sup>

فالشفاة تجوز عندما تكون الشكوى في طريقها إلى الحاكم، أي عند الشرطة وأماكن الشكوى، أما إذا وصلت إليه، فإن الشفاة تتحول إلى جرم خطير.. يهدد الأمن الداخلي للدولة، ويمكن للفساد من التسلل إلى جهاز القضاء والعدالة فيها، وفي التشريع الإسلامي حدود خمسة لا تجوز الشفاة فيها هي:

حد السرقة، وحد شرب الخمر، وحد الزنا، وحد القذف، وحد الحرابة. وهي حدود ضرورية لحماية الدماء، والأموال، والأعراض، والعقول، والأنساب. فلا خير في حياة تمتهن تلك الأشياء التي تعادل الحياة نفسها، وتميز الإنسان وترفعه عن مرتبة الحيوان، فليس من المستغرب أن يرتكس الإنسان إلى درجة أسفل من درجة الحيوان، في تلك اللحظات التي ينتهك فيها تلك الأشياء، لأنه قد يفعل ذلك بوعي وإرادة وترتيب. أما الحيوان فهو يسفك ويفتسر بدافع غريزي بحت، ودون وعي أو ترتيب مسبق.

تلك الأفعال التي يقوم بها الحيوان هي شرط الحياة الوحيد المتوفر لديه، وهو شرط مبرمج داخله من الخالق سبحانه. أي أنه لا يمكن له العيش دون ذلك. أما

(١) حديث حسن رواه مالك ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سليمان الطبراني ثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده. وأحمد عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.  
(٢) حديث حسن رواه الإمام مالك وهو جزء من الحديث السابق.

الإنسان فله طرق كثيرة جداً للعيش.. دون الإضرار بالآخرين، لكنه يختار أحياناً طرقاً شديدة الضرر بمحض إرادته.. إرضاءً لغروره أو جسعه، أو نوازع الحقد في داخله، أو تحت تأثير العاطفة والشهوة، وهي أشياء لا تمت للضرورة أو للصراع من أجل البقاء بصلة، ومسؤولية الفرد الشخصية أمر جعله الإسلام من ثوابته، والنبي ﷺ يمارس تطبيقه الآن مع هذا السارق على أرض المدينة. فهو يسرق شيئاً ليس مضطراً للحصول عليه للبقاء حياً. كما أنه مارس ذلك داخل المسجد، وباعترافه هو.. مع ملاحظة أن النبي ﷺ لم يكن في مثل هذه الحالات يمارس الحبس على ذمة التحقيق، أو التعذيب لانتزاع الاعتراف بالقوة والقهر.

كان ﷺ يقرر قاعدة الوقوف مع المتهم حتى تثبت عليه التهمة، فعندما «أتي بسارق قد سرق شملة فقالوا: يا رسول الله. إن هذا سرق. فقال رسول الله ﷺ: ما أخاله سرق.

فقال السارق: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم إيتوني به. فقطع، ثم أتى به فقال: تب إلى الله. فقال: تبت إلى الله. فقال: تاب الله عليك»<sup>(١)</sup>

فتطبيق الحد لا يعني أن ينصرف المذنب وهو يحس أنه مراقب من قبل السلطة والمجتمع فقط، لأن تلك الرقابة تذوب متى ما أمن العقوبة، وتوفرت له سبل الفرار والخروج والتحايل على النظام. أما الإسلام فيجذر في أعماق الفرد رقابة الله، والخوف منه قبل كل شيء، فالله لا يغفو ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، وبذلك يتوافر لدى الشريعة الإسلامية وحدها دون غيرها رقابتان: من الداخل.. حيث استشعار مراقبة الله. ومن الخارج.. حيث أحكام الشريعة ونظامها وتطبيق ذلك النظام على الجميع دون محاباة.

(١) صحيح وسنده حسن رواه الحاكم ٤٢٢-٤ والبيهقي في الكبرى ٨-٢٧١ وغيرهما من طرق عن عبد العزيز ابن محمد الدراوردي أخبرني يزيد بن خصيفة عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ابن ثوبان وتلميذه تابعيان ثقتان: التقريب ٤٩٢ و٢٠٦ والدراوردي حسن الحديث إلا عن عبيد الله العمري فمنكر وهذا ليس منها وله طريق أخرى عند الطبراني: ٧-١٥٧ عن السائب بن يزيد.

كان ﷺ يقدم في المدينة لمن يأتي بعده.. دور الزعيم والإمام، والقاضي والأب والمواطن الصالح لكل زمان ومكان.. لا يشغله شيء عن شيء، ولا يعتذر عن مخالطة الناس وتحسس قضاياهم بكثرة مشاغله، واتساع دولته وكثرة غزواته.

هاهو في إحدى بيوته، وأحد أيامه السعيدة يبتهج بهدية جميلة تقدمها له مارية القبطية:

### مارية تلد ابناً للنبي ﷺ

سعد عليه السلام بولادة ابنه الجميل، وسماه باسم أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ. وكان هذا الرضيع الجميل يملأ قلب النبي ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتاً من عوالي المدينة.. يتولون رضاعه، وكان يتردد على ذلك البيت كالشوق.

يصفه أنس بن مالك فيقول: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخل وكان ظئره قيناً، فيأخذه فيقبله ثم يرجع»<sup>(١)</sup>

كانت تلك القبلات الحانية موضع استهجان بعض الأعراب الذين أكسبتهم الصحراء بعض ما فيها، فقد «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكن والله ما نُقبل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»<sup>(٢)</sup>.

وليس هناك شيء أشنع من نزع الرحمة من القلب.. سوى توهم أن الرجولة تتطامن وتتقص بتقبيل الأطفال والانحناء لهم وكأنهم نسل بهائم مستقدرة.

وإذا كان إبراهيم الصغير عليه السلام قد أدخل البهجة على قلب والده، وكبده من الشوق الكثير حتى تجشم وهو رأس الدولة عناء البحث عنه لتقبيله وضمه، مع أن باستطاعته أن يطلب إحضاره متى شاء وأين شاء، فإنه حزن كثيراً على ابن ابنته -لعلها- زينب، فهو الآن يعاني من مرض شديد.

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

يقول «أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتتا. فأرسل يقرئ السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه لياتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقمقع... كأنها شن<sup>(١)</sup> ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(٢)</sup>.

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشغله اهتمامه بشؤون أسرته عن الاهتمام بقضايا أمته ومواصلة رسالته.

ها هو يستدعي أحد القادة الذين برزوا سريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلب منه التوجه نحو منطقة يسكنها بنو جذامة، وهم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

### غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته

لم ينطلق ابن الوليد وحده نحو بني جذيمة، فمن مكان لا أعرفه لكنه مضمع بالعواطف القتالة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادل العواطف نفسها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهـر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشاً من بين عيني عاشقها ومضاربه، لتتطلق العير، وتتمايل الهودج بحببش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشق ويرغم صاحبه على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاوير لا يعرف

(١) كأن قعقة نفسه صوت قرية بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٣١. ومكان النقط: قال حسبته أنه قال